تأويل صور العدم في علاقات الحضور والغياب (القصيدة الجاهلية إنموذجا)

م.د. امل حسن

جامعة واسط /كلية الاداب /قسم اللغة العربية

E: Aaldelphi@uowasit.edu.iq

تاريخ الاستلام : 2020/7/8

تاريخ القبول : 2020/8/8

الملخص:

يدرس البحث تأويل صور العدم متمثلة ب(الموت والشيخوخة)في اطار علائقي قائم على طبيعة علاقات الحضور والغياب ،إذ إنّ حضور صور العدم يفسح المجال أمام المتلقي لتأويل الغياب،نظرا لما تشير إليه صور العدم من الشعور بالانكسار والضعف نتيجة لتبدد القوة والشعور بزوال الحياة ؛لأنّ الذات الشاعرة تعاني مرارة الإحساس بما يفجعها ،مما يثير اضطرابها ومحاولتها نقض العدم بكل مايحقق لها التشبث بالحياة .

الكلمات الدالة: العدم ، الموت، الشيخوخة

Interpretation of images of Nonentity in the Presence and Absence of relationships

(The pre-Islamic poem as a model)

Prof. Dr. Amel Hassan

Wasit University / College of Arts

Department of Arabic Language

Aaldelphi@uowasit.edu.iq

Receipt date: 8/7/2020

Date of acceptance: 8/8/2020

Abstract:

The research studies the interpretation of the images of nonentity represented by (death and old age) in a relational framework based on the nature of the presence and absence relationships. The presence Nonentity images gives way to the recipient to interpret the absence due to the nonentity images that refer to weakness and vanquished because of power dispersion and losing life.The self-devoted suffers from sense bitterness because of specific Trauma, and that will disturb it, and trying to catch the life.

Keywords: Non-entity, death, old age.

المقدّمة :

شكّل الموت والشيخوخة جزءا كبيرا من وجود الانسان الجاهلي الذي كان ينزع نزوعا فطريا ابديا نحو الحياة والديمومة ،لاسيما أنه يرى كل شيء حوله مهدد بالفناء والافول .مما اثر على نوازعه الشخصية وسلوكياته الذاتية التي امتزجت بالحسرة والقلق والياس والحزن أزاء وجوده وكينونته .

إن حضور الموت بشكل ظاهر جلي في النص الشعري الجاهلي اشارة الى غياب المأمول والمرتجى تحقيقه ، نظرا لإرتباط علاقات الحضور السلبية (الموت)مع علاقات الغياب الايجابية (الحكمة). ومن خلال التأمل والتفكير ادرك الشاعر الجاهلي مايؤول اليه الموت والشيخوخة ،لأنهما يعنيان الاقتراب من النهاية والمصير المحتوم .

صور العدم:

يُعدّ الموت هاجساً وجودياً طالما أقلق الإنسان الجاهلي فوقف باحثاً حائراً يتأمل السرّ بين الحياة والموت، فشعر بأنه "وتر مشدود على الهاوية الفاصلة بين لانهايتين: الوجود المطلق، والعدم المطلق؛ لذا كان وجوده نسيجاً من كلا النقيضين، على تفاوت نصيب كليهما منه وفقاً للحظات الزمانية، بكل ما تنطوي عليه من إمكانات تترجّح بين المدّ والجزر، في تيار المصير المتوثب للرّوح" (بدوي،3،1947). فكلما نظر الشاعر الجاهلي الى حياته والعالم من حوله، أدرك أن ذلك من أجل الموت أخذ يبكي روحه؛ ففي قمة وجوده يستشعر العدم، لأنه يخشى على الوجود من التلاشي والغياب، لأنّ الحياة بالنسبة له لغز يورث الحيرة والقلق إزاء نهاياتها المحتومة التي تحيل الإنسان الى حالات القهر والفزع أمام قوة الموت العاتية.

ويقف الموت حائلاً أمام غريزة حبّ الحياة فيزداد قلق الإنسان الذي وعى تلك الحقيقة منذ أن وعى وجوده، وغدا الموت غاية تنتهي عندها الحياة وتنعدم انعداما مطلقاً.

وقف الشاعر الجاهلي إزاء مشكلة الموت موقف المستلب، والمتفكّر بعقلٍ يملؤه الخوف والرهبة. فالموت "الهاجس الأكبر الذي أثقل حياته، وأنهك عقله وأرعبه، فأخذ يبحث عن وسيلة لإبعاد حسّ الهزيمة والاستلاب الذاتي ومصدره"(قادرة،177،2007)، فنظر الى الزمن بوصفه باعثا للإحساس بالعدمية نظراً لتسلط قوى الدهر عليه، فخوفه من العدم كوّنه شعوره الايجابي تجاه الوجود والحرص عليه والتشبث به، إذ إنّ "العدم مصدره التناهي، والتناهي أصله الزمان، فالسلب ناشئ عن الزمان، والعدم شرط التحقق في الوجود" (بدوي ،221،1972).

وعليه فإنّ العدم يكمن في الفقد والتلاشي والغياب، وهو الموت، والفناء، والسلب.

يستشعر زهير بن أبي سلمى العدم كنقيض للوجود من خلال تأمّلات طويلة تعكسها نظرته الى الموت، إذ يقول:

ألا ليتَ شِعري هلْ يرى النّاسُ ما أرى مِنَ الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا

بدا لي أنّ النّاس تَفنى نُفُوسُهُم وأموالُهُم ولا أرى الدّهر فانيا

وأنّي متى أهبط مِنَ الأرض تِلْعَةً أجد أثراً قبلي جَديداً وعافيا

أراني إذا ما بــتُّ بــتُّ على هــوىً وأنّي إذا أصبحتُ أصبحتُ غاديا

إلى حُفْـرَةٍ أُهـدَى اليـها مُـقيــمـةٍ يحثُّ اليها ســائـقٌ مِنْ ورائيـا

كـأنّي وقـد خَـلَّفتُ تســعين حِجـةً خَلَعتُ بها عن منكبي ردائيا

(شعرزهير بن ابي سلمى،167،1997_169)

يفصح النص بالسلب من خلال النزعة التشاؤمية إزاء الفناء والدهر بوصفهما صوراً لتجلي الموت، "فقد كان الدهر في نظر الشاعر القديم صياداً، وكأن الموت سهامه ونباله، كما كانت المصائب والأرزاء بعض هذه السّهام، والنّبل" (رومية،1996، 268)، ويمثل السلب صوت الشاعر (الإنسان) المغلوب، إمام الدهر الغالب، وذلك في قوله:

بـدا لي أنّ النّاس تَـفـنى نُفُوسُــهُم وأموالُهُم ولا أرى الدّهـر فانيا

ويتجلى العدم والتلاشي في قوله:

إلى حُفْـرَةٍ أُهـدَى اليـها مُـقيــمـةٍ يحثُّ اليها ســائـقٌ مِنْ ورائيـا

وكذلك في الألفاظ (تفنى، فانيا، الدهر، أهبط) .حملت الحفرة معنى التغييب والعدم،تلك المرحلة التي يمرُّ بها الإنسان بعد انقضاء عمره، فهو يحيى على الدوام حتمية الموت. والغياب متعلق بحقيقة الموت التي عكست سلبية الواقع في تلاشي الإنسان وغياب المصير في عوالم مجهولة. وهي حكمة الشاعر التي قصدها من شكواه ليلخّص فيها خبرته في الحياة، ومصير الإنسان وتقلّب الزمان، فالغياب والحضور ارتبط بالتأمل الوجودي ليعكس أبرز القضايا والمشكلات التي يعانيها العربي الجاهلي آنذاك، محاولاً التخفيف من قلقه عبر نشدان الإيجاب في التشبث بالحياة كوسيلة للمواجهة والرغبة في استمرار وجوده.

وبنظرة يملؤها اليأس والألم يبوح الأعشى بهيمنة الموت، إذ يقول:

لَعمرُكَ ما طُولُ هذا الزَمنْ على المَرْءِ إلّا عَنَاءٌ مُعَنْ

يَظلُّ رجيماً لريب المَنونِ وللسُّقْم في أهله والحَزَنْ

وهــالـكِ أهـــلٍ يُـجِـنُّونَـهُ كآخَرَ في قفرةٍ لـم يُجنْ

وما إنْ أرى الدَّهرَ في صَرفِهِ يُـغَادِرُ من شَارخٍ أو يَفَنْ

فَهَلْ يَمْنَعني ارتيـادي البـلا د من حَذَرِ الموتِ أن يأتينْ

أليس أخو الموتِ مُسـتوثِقاً عَلي وإن قُلتُ قّدْ أنسأنْ

(الأعشى،د.ت،237)

تعبّر الذات عن مرارة الإحساس بالفجيعة إزاء غلبة الموت، وهو السلب الذي ينكشف فيه صوت الشاعر من خلال الألفاظ (عناء، رجيماً، ريب، المنون، السُقم، هالك، يغادر، يفن، الموت، مستوثقاً)، للدلالة على العدمية والتلاشي في حسٍّ مأساوي يعكس الغياب والمصير المجهول، إذ إنّ مخالب الفناء أشد ما يؤلم الإنسان؛ لأنها طوقت عنقه، فصار التناهي مصير وجوده، فالإنسان يغيبه الموت، وهو يسعى الى التشبث بالحياة. يعي الشاعر تلك الحقيقة فيقدمها خلاصة لتجاربه الطويلة في الحياة (الحكمة) بعد أن قعد به المرض وأحسّ بدنو أجله.

وقد ارتبطت التساؤلات برؤية ثاقبة للموت اثارت اضطرابات النفس وجسدت رغبة في نشدان الوجود وديمومته (الإيجاب).

ويرى لبيد بن ربيعة العامري حقيقة الموت المؤكدة فيبثها بطريقة مبنية على علمٍ ودرايةٍ وبصيرة، إذ يقول:

بَلِيـنا وما تَبلى النجومُ الطّوالعُ وتَبْقَى الجِبالُ بعدنا والمصانعُ

وقد كنتُ في أكتافِ جارِ مَضِنّةٍ فَـفَـارَقني جارٌ بـأرْبَـدَ نـافـعُ

فـلا جزعٌ إن فـرّق الدّهـرُ بـيـننا وكلّ فتى يوماً به الدهرُ فَاجعُ

ومـا النَـاسُ إلّا كـالدّيـارِ وأهْـلِـهـا بـهـا يـومَ حَـلُّوهـا وغَـدوَاً بـلاقـعُ

ومـا المرءُ إلّا كالشِّـهَـابِ وَضَـوْئِـهِ يَحُورُ رماداً بَعْدَ إذ هُوَ سَـاطـعُ

ومـا المـالُ والأهـلـونَ إلّا وَديـعَـةٌ ولابُـدّ يـومـاً أنْ تُـرَدَّ الـوَدائـعُ

فـلا تَـبـعـدَنْ إنَ المـنيّـةَ مَـوْعِـدٌ عليـكَ فـدانٍ للطّـلُـوعِ وطَـالـعُ

أتجزعُ فيما أحدثَ الدّهرُ بالفتى وأيُّ كريم لم تُصِبْهُ القَوَارعُ

لعمرُكَ ما تدري الضّواربُ بالحَصى ولا زاجرات الطّير ما اللهُ صانِعُ

(لبيد بن ربيعة العامري،1962، 110-113)

يتعالى صوت الشاعر المهزوم من خلال السلب في الألفاظ (بلينا، فارقني، جزع، فرّق، فاجع، المنية، القوارع) للدلالة على تلاشي الآخر (الأخ) وغيابه.

ويعمد الشاعر الى تقديم صورة قاتمة للحياة، تتحمل فيها الذات ضروب العذاب والمعاناة، فتنطلق رؤيته من إحساس بألم الفقد وهي رؤية واقعية أحالت السعادة الى حزن والحياة الى الموت. فالغياب متعلق برغبة نفسية تناقض الواقع (الوجود).

كذلك فإنّ حضور العدم من خلال البوح، ونفي البِلى عن (النجوم، الجبال، المصانع دليل سعي الشاعر والرغبة في الخلود.

وقد تمكّن الشاعر من خلال التناقض اللفظي الظاهر بين (بلينا وتبقى) من أحداث التوتر بين طرفي النقيض في فلسفة عميقة تشير الى نهاية الإنسان، وبقاء الأشياء بعده. وهكذا فإنَ الغياب ارتبط بمكبوتات النفس، فقد اتخذ حادثة فقد (الأخ) ورثائه باعثاً للحكمة وتسطير الموعظة تجاه حوادث الدهر في نظرة واقعية للأشياء.

وعليه فإن حتمية القدر تقابلها حتمية السلب التي يولدها الشعور بالفقد والغياب بسبب عدم القدرة على مواجهة الدهر المتسلط على المصير الإنساني. ومنه قول عبيد بن الأبرص:

يا حارِ ما رَاحَ مِنْ قَوْمٍ ولا ابتكروا إلّا وللموت في آثارهم حادي

يا حارِ ما طلعت شمسٌ ولا غَرَبَتْ إلّا تَقرّبَ آجالٌ لمِيعادِ

هل نحنُ إلّا كأرواح تمُرُّ بها تحتَ التُّرابِ وأجسادٍ كأجسادِ

(عبيد بن الابرص،د.ت،110-113)

إنّ الإحساس بتناهي الوجود حدا بالشاعر الى استحضار صور الموت ليؤكد الشعور السلبي بالعدم المحيط به، فيُشير الى رغبة في التمسك والتشبث بالحياة، وقد تمكن الشاعر من رسم معالم العدم والزوال عبر صور الأجساد تحت التراب.

ومن هنا نشأ التوتر بين العدم/ الوجود، ففي غروب الشمس دنو التلاشي، و"ذلك هو قلق الموت المتمثل بالتأمل الشعوري في حقيقة الموت والتقدير السلبي لهذه الحقيقة " (عبد الخالق،38،1987).

الغياب متعلق بالحكمة التي أودعها صور الموت السلبية للإشارة الى قلة حيلة الإنسان، فجاءت مليئة بالحسرة والألم لتصوّر الإنسان محاصراً بين العدمية والوجود.

وبذا فإن الشعراء عمدوا الى تصوير الموت من خلال الطبيعة والواقع السلبي من حيث جبروته في التلاشي والفقد (الغياب)، وقد أودعها حكمته وخبرته التي تدل على وعيه وإدراكه لكلّ ما يحيط به حاملة طابع العظة، ومتصلة بعقلية ناضجة ونفسية مضطربة حزينة .

صور العجز والإنكسار:

ترتبط الشيخوخة بفعل الزمن وقوته الجبارة على هدم كل متعة، والقضاء على كلّ أمل، إذ إنها "تمثل جرحاً داخلياً في نفس الشاعر الجاهلي" (الصائغ،158,1986) ؛لأن "أفول الشباب من أقسى لحظات المرارة والألم إزاء رؤية الحياة والقدرة تذوبان، فهو مُصابٌ جلل لا يقل سوءاً عن الموت؛ إذ تتوقف حياة العاجز عن أداء الفعل كما كان سابقاً؛ لأنه بات محط استنكار، وفي مواقع مواجهة مشاق الحياة وتحدياتها وصعابها، وبهذا يغدو الشباب ضمانة الحياة" (قادرة،197).

الخوف من الشيخوخة "إنما هو في جوهره تعبير عن إحساس المرء بأنه لم يستطع أن يحيى حياة منتجة، وبالتالي فإنه ردّ فعل يقوم به ضمير الفرد ضد عملية التشويه الذاتي التي مارسها في نفسه" (ابراهيم،د.ت،152). بناءً على هذا "فإنّ الإنسان يجد هوة كبيرة بين ما كان يرجوه لنفسه في حياته من خير، وبين ما حققه بالفعل، يشعر بخيبة وحسرة وإحباط، لأنّ ما أراده لم يتحقق، ولا سبيل الى تحقيقه في الشيخوخة" (يوسف،345،2003–346)

وقد ارتبطت الشيخوخة بسلوكيات الإنسان وأفعاله فكانت نتيجتها اليأس القاتل أو ما يمكن أن نطلق عليه الموت البطيء للذات، فهي "الشعور بأنه قد فات الأوان، وإن اللعبة قد انتهت، وإن المسرح – من الآن فصاعداً – قد أصبح ملكاً لجيل آخر" (ابراهيم،153)؛ لذا يمكن القول أن أهم السلبيات التي يعاني منها الإنسان في هذه المرحلة هي عدم الشعور بالأمان نتيجة التفكير الدائم باقتراب المنية وما يصاحبها من رهبة وخوف، وبذا فهو في مرحلة جديدة انصهرت فيها القوة والسلطة والنشاط، وأصبحت شاخصةً بالشقاء والتحسر واليأس، وهي أبرز سمات الواقع السلبي.

وبما أنّ الزمن يسير ولا يعرف التوقف عند مرحلة ما، فإنّ أقسى معاناة الإنسان تكمن في استحالة عودة الماضي، وتمركزه في بؤرة السلب، والتوتر القائم بين المعاناة الداخلية والواقع، فلا تبقى وسيلة للشاعر إلّا محاولة التعويض عن آلام الشيخوخة بالذكرى وتداعي الماضي وصوره المفرحة، لاستعادة توازنه وتقويم وجوده، ففي الشيخوخة "يتحسَّر الشيوخ على أيّام الشباب في محاولة للتعويض عن الآلام التي يُلاقونها في شيخوختهم، ويذكرون تلك الأيام، والفرحة تملأ عيونهم، ولكن الحسرة تظل تغلّفهم، إنّهم أمام عجز الشيخوخة لا يجدون ملجأ لهم إلّا في الأيام الخالية، أيام الشباب، بحثاً عن عالم يخلق التوازن النفسي في داخلهم ."

(الخشروم،1982، 266)

وفي ظل الصراع بين شعور السلب والانفصال عن الواقع، والرغبة بالإيجاب لخلق التوازن النفسي فإنّ الإنسان يبقى خاضعاً لقانون الحياة، الذي "يترك الفتى شيخاً، والفتوة تعني الحياة والأمل، والذكريات نحو الماضي حيث الشباب، ولكن سُنة الحياة ان سليمها الى سقم وجديدها الى قِدم، وشبابها الى هرم، ويبقى المرء يحلم بالرجاء والأمل" (محمود،83،2013).

وتحيل الشيخوخة البنية النصية الى الترابط الزمني بين الماضي/ الحاضر بين النشاط والحياة والحركة وبين العجز والانكسار، وهو ما عليه الشاعر في لحظة انبثاق التجربة، فحضور الشيخوخة يغيّب لذة الفعل الإنساني ومتعته، وهو الغياب الذي يحاكي الخوف من الفناء، لذا يُعيد الشاعر لنفسه التوازن من خلال تداعي الذاكرة، وإسقاط ما في داخله على مجموعة من السلوكيات والأفعال التي تمنح النفس قدراً من الاطمئنان والتفاؤل لمواجهة السلب، ونشدان الإيجاب، ومنه قول دريد بن الصِّمّة:

يا هندُ لا تُنكري شَيْبي ولا كِبري　　فَـهـمّـتي مِـثْـلُ حَدّ الصَّـارِمِ الذّكـرِ

ولي جِنانٌ شـديدٌ لو لقيتُ بـه　　حَوادثَ الدَّهْرِ ما جاءَتْ على بَشَـرِ

فما توهّمتُ أنّي خُضتُ مَعْرَكَةً　　إلّا تـركْـتُ الدِّمـا تَـنـهـلُّ كـالـمـطـرِ

كم قدْ عَركْتُ معَ الأيامِ نائِبةً　　حتّى عَرفتُ القَضا الجاري مع القدرِ

(دريد بن الصمة،د.ت،98)

تتجلى فاعلية الشيخوخة من خلال العلامات التي تتركها على الإنسان بوصفها علامات سلبية، وذلك في الألفاظ (شيبي، كبري)، ويشكّل الشيب "مصدر شؤم وقلق دائمين للإنسان فيضعه أمام تحدٍ صعبٍ ومنعطفٍ خطيرٍ، يتمثل في عملية التبدّل والتغيير من حالة الشباب الى المشيب فيعيش الفرد وضعاً نفسياً مغترباً ممزوجاً بواقع الفقد، واستلاب يسري خارج إرادته؛ لأنّ حلول الشيب نذير ذهاب مرحلة القوة والحيوية. وعليه فإن الشيخوخة أداة فاعلة في إحداث صدع العلاقة مع الآخر (المرأة)، نتيجة التبدُّل والتغيير، فهي – إذن – تغييب فاعل لعالم اللذة والمتعة (القوة والفتوة).

وغدا الشاعر مفجوعاً بالصدّ والنكران من قبل (الآخر) هند التي رفضته لكبر سنه من جهة، وبمداهمة الشيّب من جهة أخرى، فصار يعيش المتناقضات، وأخذ يبحث عن "استراتيجيات" يواجه بها الحدث في الزمن الحاضر بارتداده الى الماضي المزدان حيوية ليمنحه القوة في مواجهة عجز الحاضر، فكانت الذكريات وسيلة إسقاط أنقذت الشاعر من الشعور السلبي باللجوء الى الحفر في الذاكرة، واقتناص أبرز الأفعال التي من شأنها أعلاء الذات بإضفاء قدرة الفعل، فالغياب يحاكي عالم الفروسية (القوة) من خلال التفاخر وتضخيم الذات في مواجهة الأشياء من أجل إثبات الوجود.

إنّ الاستذكار الذي عمد اليه الشاعر دليل رغبة مكبوتة مليئة بالأمل وتمني عودة ذلك الزمن، زمن القوة والفتوة ، ومنه قول ربيعة بن مقرم الضبيّ:

ألا صَـرمَت مَـودَّتَـك الرُّواعُ وَجدّ البَـيْـنُ مِنْها والوَدَاعُ

وقـالـت: إنّـهُ شَـــيْـخٌ كبـيـرٌ فَلّجَّ بِها ولم يـرعِ امتِنَـاعُ

فـإمّـا أُمْسِ قد رَاجَعتُ حِلمِي ولاحَ عليّ مِنْ شَـيْـبٍ قِنـاعُ

فقد أصـلُ الخليلَ وإن نآني وغِبُّ عَدَواتي كـلأٌ جُداعُ

وأحفظُ بـالمغيـبـةِ أمْرَ قومي فلا يُسدَى لديّ ولا يُضـاعُ

(المفضليات،186،1963)

تصدّع العلاقة بين الشاعر والآخر (المرأة) نتيجة الشيخوخة التي قادت الى الانقطاع والنفور في الألفاظ (صرمت، البين، الوداع)، وقد خلق حوار المرأة أزمة نفسية من خلال عدم تمكن الشاعر من تحقيق رغباته، مما ولّد الإحباط، لأنّ الذات تشعر بالقلق جرّاء وقوعها تحت قهر الموضوعية والعالم الموضوعي.

وقد أشارت الشيخوخة على لسان المرأة الى انحلال الحياة وإدبار الشباب وقرب الفناء، ودنوّ الموت. وبذلك فإن سلبية الشيخوخة في الواقع تشير الى استحضار الفعل بالارتداد الى القيم الذاتية من خلال المقابلة بين زمنين مختلفين أولهما الماضي المنشود، والثاني هو الحاضر المرفوض، فتحول معها رؤيته الشعرية ليتخذ فضائله وقيمه وسيلة لفروسيته في الألفاظ (أصِلُ الخليلَ، وأحفظ بالمغيبة)، إذ إنّ الوصل والوفاء أقدس القدسيات وأوسع أبواب الفخر، فهو فارس ملتزم بقضايا قومه ومجتمعه في إطار الفروسية الملتزمة. إنّ مثل هذه الصفات تزيل الشعور بالقلق والإحباط وتمنح النفس استقراراً وأمناً يتغلب بهما على محاولة التغييب (الشيخوخة)؛ فيتضح البعد النفسي للغياب داخل بنية الحوار وقيم الفروسية كمعادلة من الشاعر لإثبات وجوده.

إنّ العلاقة بين الشاعر والزمن تعتمد الإحساس بقوى غيبية غير مرئية تؤثر فيه؛ لذلك نظر الشاعر الى الشيب على أنه أداة تقوم على التغيير والتحوّل نحو محاولة تغييبه، وتجميد فعله وحركته، ومن ثم تعكس تفسيراً كبيراً غالباً ما يقوم على التناقض في التجربة الإنسانية ليواجه التغييب بالتشبث، والغياب بالحضور، كقول مجمّع بن هلال:

إن أُمسي شَـيخاً قد بَليتُ فَطَالما عمّرت ولكن لا أرى العيش ينفع

مَرَضتْ مِئةٌ من مَولدي فَتَصَيْتُها وعَشْـرٌ وخَمْسٌ بعد ذاك وأربـعُ

فيا رُبَّ خَيلٍ كالقَطا قَدْ وَزَعْتُها لها سَـبَلٌ فيـه المنيّةُ تَلمَعُ

شــهدتُ وغَنْمٍ قد حَوَيـتُ ولذّةٍ أصَبتُ وماذا العيشُ إلّا تَمتُّعُ

(السجستاني،1986، 41)

الصورة السلبية قائمة على التناقض بين الهدم وفقدان القدرة (التغييب) متمثلاً بالشيخوخة مما يجعل الشاعر يميل الى عرض صورة الماضي عبر سلسلة من الأفعال في (وزعتُها، شَهِدْت، هَوَيتُ، أصبتُ).

وقد أسهمت المتناقضات في خلق تصورات الشاعر حول الوجود لتأسيس رؤية معينة يفسر من خلالها الصراع الوجودي الذي يتكون من الفجوة الناشئة بين الماضي والحاضر، ففي الارتداد الى الماضي تنعكس الأزمة وتزداد الرغبة في الانفصال عن الحاضر لتأكيد أداء الفعل، وذلك في قوله (فيا ربّ خيلٍ كالقطا قد وزعتها) تعتمد الصورة القوة في أداء الفعل السريع والنشيط والقوي لمقابلتها مع العجز والضعف في مرحلة الشيخوخة، فضلاً عما منحه ضمير المتكلم في دلالته على تضخم الأنا والتعبير عن قدرتها لمواجهة محاولات التغييب، وخلق عالم اللذة الذي يصنعه المجد والفروسية، فالغياب يمنح الشاعر قدرة على استيعاب المتناقضات التي يخلقها الوجود مع ما تثيره في النفس، مما يجعله يبحث عن إسقاط ووسائل تفريغ تحاكي أغوار النفس، ليعقد المقابلة بين سلبية الواقع (الشيخوخة) وايجابية أفعال الذات مشيرا الى البطولة والفروسية ليؤكد قدرته على اغتنام اللذة واقتناصها من لحظات الضعف، وتحويلها الى مجد وقوة، وهي سمات ذلك الماضي الذي يواجه به الشاعر معترك الحياة، ويأمل عودته.

وقد ينفث الشاعر الألم والحسرة على الزمن المنصرم الذي تتجلى فيه عناصر الحيوية والعنفوان، كقول سحيم:

فإمَّا تَريني علانِي المشيـ ـبُ وانصَرَفَ اللَّهْوُ عَنّي انصرافا

وبانَ الشَّـبابُ لِطيَّاتِـهِ وقد كـنتُ رُدّيتُ منه عِطافا

فَقَدْ اعْقِرُ النَّابَ ذات التَّلِيـ ـل حتّى أُحاولَ منها سِـــدَافا

بِمَثْنِى الأيادي لِمَنْ يَعْتَفِي وأرْفَـعُ نَارِي إذا ما اســتضـافا

وخيـلٍ تَكَدَّسُ بالدَّارعيــ ـنَ مَشْـيَ الوُعُولِ تَـؤُمُّ الكِهافا

تَقَدُمْتُـهُنَّ على مـرجلٍ يَلُوكُ اللِّجامِ إذا ما اسـتهافا

(سحيم عبد بني الحسحاس،45،1950-46)

يعكس حضور الشيب رؤية سلبية يشوبها القلق والتحسر نتيجة الشعور بتقلبات الزمن التي تحيل زمن الفعل (انصرف اللهو) المتمثل باللذة إلى الانتهاء و(التغييب)، فيضحي غياب أداء الفعل هلاكاً بالنسبة للشاعر، وقد ارتبط هذا الفعل بزمن (الشباب) أي الزمن الماضي الذي يرغب باستمراريته إلى الوقت الحاضر.

وقد طغت لغة الأسى الممزوجة بفاعلية الشيب وتسلطه في (علاني)، بسبب الشيخوخة التي وضعت الشاعر أمام مأساة، وعجز كبيرين، إذ إنّ "الذات المنكفئة والوعي المتقلص في الشيخوخة لدى الشاعر يحملان حصاد تجربة وقطاف عمر ونتاج دراية بالأمور" (ابراهيم،154،1989) . ففي الشيب تغييب للإرادة وعدم تحقيق الملذات، وهو اعتراف من الشاعر بانهزام الزمن الجميل (الماضي) أمام سطوة الحاضر، لذا يبدأ بالحديث عن تجاربه في الزمن المنصرم، مما يعني أنّ الذات ترثي تراثاً وتترحم على ماضٍ وتصف كآبة أرذل العمر.

وقد عكست الأفعال (أعقر الناب، أحاول منها سِدانا، أرفع ناري، تُقَدَمُتُهنّ) المجد الذي يحققه عالم اللذة بذكر الأحداث والوقائع القائمة على الكرم والفروسية لإقامة جسور التواصل بين عالمين متعاكسين ومتضادين اختار الشاعر مواجهة العالم الأول (الشيب) الذي تطغى فيه السلبية بعالم ثانٍ (الفروسية) الايجابية المنشودة في زمن الفعل واللذة.

وهكذا فإنّ حضور صور الضعف والانكسار في الشيخوخة أضمر تحته كثيراً مما تنطوي عليه النفس الإنسانية ورغباتها لاسيما الخوف والقلق والحسرة والألم والتفجع، فجاء موضوع الشيخوخة كوسيلة تفريغ مكامن الذات في مواجهة سلبية الحاضر وتغييب أداء الأفعال والذات إلى محاولة بعث الماضي والارتداد إليه عبر التذكر، لإثبات الذات بذكر أفعال البطولة والفروسية بمختلف معانيها ودلالاتها، ليؤكد رفضه السلب ونشدان الإيجاب ولو كان في زمن مضى.

الخاتمة :

من أهم النتائج التي توصل اليها البحث:

استحضار الحديث عن الشيخوخة والموت في اوقات التأمل والتفكير .

- فاعلية الزمن في التغيير جعلت الشاعر الجاهلي يصارع الأحاسيس والاضطرابات السلبية .
- ازدادت مواطن الاحساس بالموت للتخلص من الهاجس الابدي (الفناء)لاسيما في الحكمة المبثوثة في النصوص.
- زخرت النصوص بمشاعر الدهشة والاسى للدلالة على المعاناة التي يواجهها الانسان الجاهلي أزاء وجوده وكيانه .
- بث الحكمة او استذكار الماضي محاولة لرفض السلبي ونشدان الايجابي في الديمومة .

المصادر والمراجع :

- ابراهيم،زكريا(د.ت)،مشكلة الحياة ،دار مصر للطباعة والنشر.
- بدوي،عبد الرحمن (1947) ، الانسانية والوجودية في الفكر العربي،القاهرة ،مكتبة نهضة مصر.
- بدوي،عبد الرحمن،(1973)،الزمان الوجودي ، بيروت ،دار الثقافة،ط1973،3 .
- الخشروم،عبد الرزاق(1982)،الغربة في الشعر الجاهلي ،دمشق،امنشورات اتحاد الكتاب العرب.
- رومية،وهب احمد(1966)،شعرنا القديم والنقد الجديد،سلسلة عالم المعرفة .
- شاكر،احمد محمد،وهارون،عبد السلام محمد(د.ت)،المفضّليات ،القاهرة،دار المعارف،ط6 .
- الصائغ،عبد لاله (1986)،الزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام،بغداد،دار الشؤون الثقافية العامة .
- الطباع،عمر فاروق(د.ت) ،ديوان الاعشى ،بيروت ،دار القلم للطباعة.
- الطباع،عمر فاروق(د.ت)،ديوان عبيد بن الابرص ،بيروت،دار القلم للطباعة والنشر.
- عباس،احسان(1962)،شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ،الكويت، التراث العربي .
- عبد الخالق،أحمد محمود(1987)،قلق الموت ،الكويت ،المجلس الوطني للثقافة .
- عبد الرسول،عمر(د.ت)،ديوان دريد بن الصمة ،القاهرة ،دار المعارف.
- قادرة،غيثاء(2008)، جدلية الوجود والعدم الخطاب الشعري الجاهلي قراءة في مضمرات الخطاب الشعري الجاهلي،دمشق،كيوان للطباعة والنشر ،ط1
- قباوة،فخر الدين (1992)،شعر زهير بن ابي سلمى صنعة الاعلم الشنتمري ،بيروت،دار الكتب العلمية،ط1.

- محمود،عبد الرزاق خليفة(2013)،المرئي واللامرئي في الشعر العربي بغداد،دار الشؤون الثقافية العامة ،ط1.
- يوسف،حسنى عبد الجليل (2003)،الادب الجاهلي (قضايا وفنون ونصوص)، القاهرة، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، ط2 .